الفصل السابع

المعجزات وأديان السامية

obeikan.com

الفصل السابع

المعجزات وأديان السامية

(أ)

● **معجزات سيدنا السطوحى.**

فى قرية «الريدانية» من قرى مركز المنصورة، كانت عائلة «السطوحى» لها «الخلافة الدينية» فى القرية.. وكان أهل القرية والقرى المجاورة يتباركون بآل السطوحى.. وكان لآل السطوحى نصيب من أى ناتج زراعى فى القرية والقرى المجاورة.. وكانت الهدايا لا تتوقف عن بيت السطوحى طلباً للبركة والدعاء: هدايا من اللبن والجبن والبيض والفطير واللحم والدجاج والبط والأوز.. فضلاً عن غلّة «الجنايين» من الموز والعنب وقصب السكر والبرتقال. (وكان ذلك فى أواخر الأربعينيات).

وتكوّنت حول آل السطوحى جوقة من المستفيدين، شبه المقيمين فى «مندرة» السطوحى. وكان هؤلاء المستفيدون يرددون فى القرية والقرى المجاورة «كرامات» و «معجزات» آل السطوحى.. فحجرة الشيخ السطوحى الكبير كانت مضاءة «ربّانى» حتى فى عزّ الليل.. و«أنْجَرْ» الفتة وما عليه من لحم، ببركة الشيخ، أكل منه عشرون، وبقى منه ما يكفى نساء أهل البيت، وهن كثيرات، وينضمّ إليهن كثيرات... وكان الشيخ ـ رحمة الله ـ صالحاً.

كان الشيخ السطوحى مكلّفا بمشوار فى المنصورة، فرآه أحد التابعين يسير على قدميه خارجا من الريدانية.. ثم تيسّر لذلك التابع أن ركب سيارة عابرة، ووصل إلى مداخل المنصورة ففوجئ بالشيخ السطوحى يسير، وأقسم

ذلك التابع بالله العظيم، أن الشيخ ما ركب سيارة) إذ إن الشيخ « من أهل الخطوة » ولا ذنب للشيخ السطوحى فيما كان يدعيه المنتفعون به .

أراد الشيخ أن يأكل من شجرة توت، فصعد أحد التابعين فى الشجرة، وقام بهزّها، فامتلأت الأرض تحت الشجرة بالتوت، فأكل الشيخ وحمد الله، وأكل كل أطفال القرية ورجالها، وبقى على الأرض كمية من التوت، جمعتْهُ النساء والبنات ووزّعْنَهُ على ربّات البيوت . . كما نُسِبَتْ إلى الشيخ كرامات ومعجزات طبيّة كثيرة . . ولا ذنب للشيخ فيما نُسِب إليه، إذ هو رجلٌ صالح .

توفى الشيخ محمد السطوحى، وظل النور « الرّبّانى » ساطعا فى حجرته مُبدّدا ظلمة الليل . . وبدأ تجهيز غسيل الشيخ . . وإذا بالماء الذى أعدّ للغسل تظهر منه رائحة المسك والعنبر . . وَصَلَتْ جثة الشيخ إلى المسجد . . أُذِّن لصلاة العصر . . وأقسم عدد كبير من أهل القرية والقرى المجاورة أن الشيخ الجثة، كان يردّد الأذان خلف المؤذن . . خرجوا بالنّعش إلى طريق المقابر، ولكن الشيخ فى نعشه أصرّ على أن يزور قبل الرحيل مقامين لشيخين فى القرية هما أبو اليوسف وأبو البركات . . وكان أتباع الشيخ السطوحى يسرعون فى تلبية رغبات الشيخ المحمول على الأعناق . . أراد أحد شباب المهندسين فى القرية أن يحول دون زيارة الشيخ السطوحى للشيخ أبى البركات، وإذا بمعجزة تحدث، حيث يضغط نعش الميت على ذلك المهندس « الكافر » ويلقى به فى ترعة مجاورة . . وأتباع الشيخ يتغامزون .

☆☆☆☆☆

(ب)

جورج واشنطن كارفر والمجال الحيوى

راقب «كارفر»[1] سلوك الحيوان فى إفريقيا وفى غابات «الأمزون».. واكتشف أن الوحوش أخذاً بنظرية «الجهد الأقل»[2] تقوم بتوزيع الغابة فيما بينها، بحيث تكون لكل أسرة من الوحوش «مجالها الحيوى» الذى تصطاد منه فرائسها.. ووفقا لما يشبه اتفاقية «جنتل مان» بين هذه الوحوش، يقوم كل وحش بتحديد «مجاله الحيوى» بوضع قطرات من بوله على الأشجار والأعشاب الحدودية، والوحوش قادرة على تمييز رائحة بولها من بول الآخرين، لكنّ هذا لا يمنع من وقوع الصراع أحيانا، فقد يحتاج أحد الوحوش إلى زيادة فى مجاله الحيوى، فيستغل هطول الأمطار، حيث تقل رائحة البول، ويوسّع مجاله الحيوى على حساب الآخرين.. وتقوم معارك حدودية.

إن «الجوقة» التى سبق أن تحدثنا عنها من التابعين للشيخ السطوحى، والتى ترتع وتأكل فى «مندرة» آل السطوحى، تعتبر بيت السطوحى «مجالا حيويا» لها؛ لهذا فإن هذه «الجوقة» تقوم بالحديث عن «كرامات» و«معجزات» الشيخ السطوحى، لأن «الجوقة» صاحبة مصلحة فى انتشار

---

(١) جورج واشنطن كارفر أمريكى من أصول إفريقية، درس سلوك الحيوان والحشرات، وكتب «تأملات فى سلوك الحيوان».

(٢) «الجهد الأقل» نظرية فى سلوك الحيوان والإنسان، ترى أن الكائن دائما يسعى لبذل أقل جهد فى ممارسة عمل ما، وذلك لتوفير جهده، إذ قد يحتاج إليه فجأة.

أحاديث.. الكرامات.. و« المعجزات » عن السطوحي.. ومن يعارض هذه الكرامات والمعجزات فهو « كافر » و « ملحد » وعدوّ للدين، وعدوّ لله الذى يُجرى تلك الكرامات والمعجزات على يدى السطوحي.

إن أنبياء البطون والعشائر مسئولون عن « المجالات الحيوية » لعشائرهم، وبدهيّ أن يؤمن الأتباع بكرامات ومعجزات الأنبياء، حتى لو كان ذلك الزعيم أو النبيّ لا يلتزم بقيم الجماعة وأخلاقها فيقتل من يقتل، ويغتصب ـ أحيانا ـ زوجات الآخرين.. ومن يعارض الأنبياء الكاذبين والدّجالين فهو « كافر » وعدوّ لربّ الجماعة وتوتمها السماوى.

☆☆☆☆☆

(جـ)

معجزات الأنبياء بلا حدود

● «وكان فيما حول ذلك الموضع ضياع لمقدَّم الجزيرة الذى اسمه «بوبليوس»، فهذا قَبِلَنا وأضافنا بملاطفة ثلاثة أيام ـ فحدث أن أبا «بوبليوس» كان مضطجعاً مُعتَرَى بالحمى، فدخل إليه بولس وصلّى ووضع يديه عليه فشفاه، فلما صار هذا، كان الباقون الذين بهم أمراض يأتون ويشفون» ص٢٨ أعمال الرسل.

● وكان الله يضع على يدى بولس قوات غير المعتادة، حتى كان يؤتى عن جسده بمناديل ومآذر للمرضى فتزول عنهم الأمراض وتخرج الأروح الشريرة منهم» ص١٩ أعمال الرسل.

● يشوع بن نون جمّد له الله ماء الأردن فعبر إلى الشرق» ص٤ يشوع.

والأمر الغريب، أن الذى وراء المعجزات، ليس بالضرورة الربّ الذى فى الأعالى، بل يكون أحيانا كثيرة إله إسرائيل الذى له أنداد: «فإنه أى إله فى السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وجبروتك» (ص٣ تثنية).. كذلك فإن إله إسرائيل يظهر أحيانا فى صورة إله وثنى، فإنه دائما ينصح الإسرائيليين بألا يعبدوا إلها آخر، ليس لأن الإله الآخر باطل، لكنْ لأن الإله الآخر ليس إله إسرائيل: «تركوا الرب إلههم الذى أخرجهم وآباءهم من مصر وتمسّكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها» ص٩ ملوك أول.

● مئات المرات، يعبر اليهود البحار بعد أن يجففها لهم الربّ، والغمام

يغطيهم فى رحلاتهم من القيظ، وعمود النار يقودهم، فى ظلمة الليل، مئات المرّات، حتى لا يضلّوا الطريق.

● وفى أشعياء: « . . ولكنْ يعطيكُمُ السيّد نفسُه آيةً، ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه «عمانؤيل» «(وهى عذراء أخرى غير مريم) ص٧ أشعياء.

● «دانيال» يُطرح فى جب الأسود، ولكن الأسود لا تأكله لأن الربّ ينقذه. ص ٣ دانيال.

● يأمر نبوخذ نصر ملك بابل بإحراق «شدْرخ» و«ميشَخْ» و«عَبْد نَغُوَ» وهم رؤساء يهود، ولكن الربّ ينقذهم من النار، إذ كانتَ بَرْداً وسلاما عليهم. . .دانيال ص٣»

● «بل أمر الملك «يَرْحَمْئيل» ابن الملك، و«سَرَايا» بن عَزَرْئيل، وَسَلَمْيَا» بن عَبْدئيل أن يقبضوا على «باروخ» الكاتب و«إرميا» النبىّ، ولكنّ الربّ خبأهما» ص ٣٦ إرميا.

● الطفل الميت الذى يصحو من موته. ص٤ ملوك ثان (كان البشر يتهددهم المرض فى القديم حيث لا علاج، خصوصا الأطفال، حيث كان يموت أكثر من نصفهم. . والآباء والأمهات يتعلقون بالطفل، لهذا كان حلم البشر، بأن يصحو الطفل من موته، وهكذا ظهرت معجزات الأطفال الذين يصحون من الموت).

● إيليا يضرب الماء، فانغلق الماء، إلى هنا وهناك، فعبر إيليا وصاحبه فى اليَبَسْ. ص١ ملوك ثان.

وتتكرّر بعض المعجزات لبشر وأنبياء، «مانيتون» السمنودى، الذى

جمع «الجبتانا» (أسفار التكوين المصرية) له «رؤيا» رأى فيها سيّد السماء وحاشيته. و«يوحنا» اللاهوتى» له رؤياه. ونبى الإسلام له رؤيا الإسراء والمعراج.. كذلك قصة الفداء والأضحية (إبراهيم واسماعيل عند المسلمين، وإبراهيم واسحق عند اليهود والمسيحيين) لها مشابهات فى البوذية، ونجد فى سفر أرميا حلما لزكريا ورؤيا لما يشبه المطهّر والجحيم عند دانتى، وفى «مسخ الكائنات» لأوڤيد، نجد «أجا ممنون» يحكم على ابنته باستباحة دمها ليسكّن غضب الإلهة العذراء «ديانا».. فنشرت الآلهة الأولمبية سحابة غشّت عيون الجمع المحتشد وإذا بظبية تتخذ مكان الفتاة الموكينية (ابنة أجاممنون).. وسكن غضب «ديانا» بالأضحية.

☆☆☆☆☆

(د)

المعجزات وخرق قوانين الطبيعة

كثيرا ما يحلم الإنسان بما حُرِم منه، حتى أن العامة يقولون فى مثلهم: «الجوعان يحلم بسُوق العيش»، ويقوم الإنسان ـ عادة ـ فى أحلامه بخرق قوانين الطبيعة: فإذا كان طاعنا فى السنّ يحلم بالعودة إلى الشباب أو الصبا، وإذا كان مصابا بمرض أو أمراض مزمنة، فإنه يحلم بالفترة السابقة على المرض حيث كان صحيحا مُعافَى، وإذا كان فقيرا يحلم بالغنى..

يعيش الإنسان حياته فى ظل ظروف طبيعية لا فكاك منها: يشعر بالقوة فى الصبا والشباب والرجولة، فإذا ما جاءت الشيخوخة ينتابه الضعف وتعتريه الأمراض، فيؤمن بأن هناك مقدّمات تؤدى إلى نتائج يستحيل الهروب منها.. قد يرى أباه يمرض، أو ابنه يمرض، ماذا يفعل إزاء المرض؟ يسمع أن هناك فى محلّة مجاورة كاهنٌ قادرٌ على إبراء المريض، حتى لو كان قاب قوسين من الموت، وقادرٌ على إبراء الأكْمَه والأبرص.. إذنْ ليذهبْ إلى ذلك الكاهن، ويدفع له ما يقدر عليه حتى يُنقِذَ مريضه، فلقد سبق لهذا الكاهن أن أبرأ كثيرين، فالأخبار فى القرى المجاورة تملأ الدنيا بإنجازات ومعجزات هذا الكاهن.

ويموتُ مريضُه، فيشعر بالأسى والحزن، ويذهب إليه كاهن آخر فيحدثه عن القضاء والقدر، وأن ما قُدِّر لابُدّ من وقوعه، ثم يُعلّل الكاهن الثانى لذلك البائس الحزين فيقول له: إنّك فعلْتَ المطلوبَ منك، وحاولْت العلاج

مع الكاهن الأول ولكنّ إرادة الله فوق كلّ كاهن وفوق كل طبيب.. وهكذا يقع ذلك الإنسان البائس بين سندان الكاهن الأول الدجّال، وبين مطرقة الكاهن الثانى الذى يعتمد على القضاء والقدر.

ولازلنا مع ذلك الإنسان البائس، فقد يعتدى على رزقه وطعام أطفاله حاكم ظالمٌ أو أمير غشوم.. فيظهُر له الكاهن الدجال، ويقول له: عليك أن تحفظ «المُنْجيات» من المتن المقدس، فإذا حفظتها وكررتها مائة مرّة قبل النوم، ومائة أخرى حال اليقظة، فسوف تحدث «المعجزة» ويعود إليك مالك.. وقد يعود إليه الكاهن الثانى ليريحه فيقول له: «يا أخى إن السلطة العليا فى الكون تتمثل فى أبينا الذى فى السموات، وتنزل منه إلى الملك، ومنه إلى الأمير، ونحن جميعا مطالبون بالطاعة لهؤلاء الثلاثة.

يقول جون كيمْنِى[1]: «إن الإيمان بالمعجزات جزء من ميلنا إلى محاولة سَكْب الكون فى قالت تصوّراتنا الذاتية، ويعود هذا الميل إلى زمن الفكرة البدائية عن الله، فالله عند الشعوب البدائية رجل سماوى ضخم وقوى.. وقد يكون رَبْطُنا بين القانون والطبيعة أحد رواسب العصور البدائية، حين كان المعتقد أن الله هو الذى وضع القوانين الطبيعية التى سُجِلَت على صحيفة سماوية؛ إنّ على الطبيعة أن تطيع تلك القوانين.. وإذا خالفت الطبيعة قوانين الله السرمدية، فإن هذا لابد وأن يكون بفعل الله نفسه، لأنه هو واضع تلك القوانين، وهكذا فلا معجزة إلا بإرادة إلهية تخرق القانون الطبيعى.. علينا أن ندرك أن الطبيعة ليست كالكائن البشرى، فهى لا تملك أن تُطيع

(١) الفيلسوف والعلم. تأليف جون كيمْنِى، ترجمة الدكتور أمين الشريف - المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر (بيروت) بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ١٩٦٥.

وأن تَعْصِى، إن قوانين الطبيعة لا تفرض حدوث ما يحدث، بل هى مجرّد «وصف لما يحدث بالفعل».. بينما نجد فى مقابل ذلك أن القانون البشرى يحمل إمكان خرقه.. فإذا وضعنا قانونا يحرّم القتل، فمن الطبيعى أن نؤمن أن ارتكاب القتل أمرٌ ممكن.. ولو كان الأمر غير ذلك، (أى لو كان القتل مستحيلا) لما كان ثمة مبرر لوضع قانون يحرّمه.. أما القانون الطبيعى فلا سبيل لخرقه، ولا حاجة لأى سلطة تُلْزِم به، لأنه لما كان هذا القانون الطبيعى سجل دقيق لما يقع بالفعل، أو هو وصف لما يقع، فليس ثمة وسيلة متاحة لخرق أى قانون طبيعى.. وإن المعجزات الكثيرة التى ترد فى أقوال الكهّان والمتون المقدسة، ليست إلا أحلاما وآمالا يتمناها الإنسان..».

☆☆☆☆☆